القصص

صه التاريخ

ذكرى زينب

بقلم مهدى الجم الطرابلسى

أقبلت عليه متهادية ، تحمل أذيالها الجوارى السود ، وجلست قربه وقالت بصوتها العذب : عمْ صباحاً أيها الأمير . فقال : عمى صباحاً أيتها الأميرة . قالت : مالى أراك طويل التأمل ، عميق التفكير ، مؤرق الليل ، محزون النهار ؟ قال : آه يازينب ! كيف لا يأرق العربى ويموت أرقاً ، ويحزن ويذوب حزناً ، إذا استُلب الكرامة ، وفقد الحرية ؟؟

حنانيك يا زينب ! إنى أكاد أموت هما وكمدا ! إنى أريد أن أستقل استقلالاً تاماً ! إنى أريد أن أملك زمام المشرق والمغرب !

إلى متى أنا خاضع للروم ؟ إنى أخاف هؤلاء اللئام يازينب ، وأرهب غدرهم ، فهم لا يرعون ذمة ، ولا يوفون عهداً ، ولا يصدقون قولاً . إنى أشفق أن يمر بنا حينٌ نذل فيه ، ونُساق للهوان والصغار سوق الابل !

إن الحرية يا زينب لا تُنال بمعاهدة ولا مفاوضة ، بل تنال بالدم ، والدم وحده . ونحن لا جيش لنا ولا عدة ، فمن أين نأتى بالدم ؟ أبالشجاعة وحدها ؟

أفديكِ يا زينب ! اهْدِنى بنور وجهكِ المشرق ، وحبك إياى ، وإخلاصكِ لى سُبل الحرية !

فقالت حييت أيها الأمير ! هيئ جيشك ، وحالفْ سابورَ ذا الأكتاف ملك الفرس ، ولْأسِرْ معك نحارب الروم ولا نرجع إلا ظافرين أو مقتولين . فالموتُ فى سبيل الحرية خير مايتصف به العربى ! !

عاد أمير تدمر بعد أيام وقال لزينب : لقد سار ملك الروم بجيش جرار على سابور ملك الفرس ، وخفت أن يظفر به ، فصالحته من بعد ما اتفقت مع سابور عليه . إلا أن الفرس هزموا جمع الروم ، وأسروا مليكهم ، فأشفقت كثيراً أن يسير سابور الينا يطلب الوِتر ، وما أحسبه إلا قاضياً علينا القضاء الأخير !

ولقد أرسلت اليه رسول الاعتذار ، وكتاب الوفاء ، وإعلان السلام ، وهدية المحبة والاخلاص ، فعتا اللئيم عُتواً كبيراً ، فأهان الرسول ، ومزق الكتاب ، ورفض السلام ، ورمى بالهدية ، وتهددنى أمام الوفد الذى أرسلته اليه ، ثم طرده من مجلسه ، وأخشى أن يحقق وعيده ! فهبت زينب تقول : الساعة يلتئم المجلس الحربى ، والساعة يُعلن الحرب على العِلج ، والعِداء على اللئيم المجرم . . .

وفى تلك الساعة التأم المجلس الحربى التَدْمُرِىُّ ، وبدا من القادة أنهم يترددون فى اعلان الحرب ، لأنهم يعلمون أن سابور ملك عظيم ، تتصدع له الجبال خشية . وانهم لفى ترددهم اذا زينب تبدو على المنبر متلثمة ، ثم تخطب خطابا بليغاً ، تحرك به العواطف ، وتلهب القلوب ، وتهيج النفوس ، وتهتف قائلة : العربى لا يرضى بالذل والهوان ، وانما يرضى بهما الفرس والرومان ، فهو للعز يموت ، وهما للذل يحييان .

وبعد أيام تكون الجيوش العربية فى طريقها الى الفرس ، يتقدمها أمير تدمر (أذينة) وأميرة تدمر (زينب) الزبّاء .

* * *

تلاقى الجمعان ، وكانت جولتان ، ثم انهزم الفرس ، وسبى أذينة من قصور سابور الحور والولدان ، وأسر الأحرار والعبدان .

وأُتى بسابور ترهق نفسه ذلة ، ووجهه قترة ، فاعتذر واسترحم ، وذل واستكان ، ودفع الجزية عن يدٍ صاغراً ، وأضحت تدمر جنة البادية بما نُقل اليها من بلاد فارس .

امتلأت نفس أذينة بنشوة الانتصار ، فعلم أن بعض الروم عصوا ملكهم وثاروا عليه ، فسار اليهم ورد عصيانهم اياه طاعة ، وثورتهم عليه استكانة ، وعاد مع زينب الى قاعدته بين هتاف ودعاء ، وما انقضت أيام حتى أتى وفد ملك الروم (جاليانُوس) يرأسه الأمير (سولقا) ، ومثلَ بين يدى الملك العربيّ والملكة وشكرهما باسم الملك والامبراطورية الرومانية ، وقدَّمَ اليهما ولاءها وصداقتها . انفتحت أمام أذينة مدارجُ الآمال ، وأمِل السيادة التامة ، والحكم المطلق ، فكتب الى جاليان يسأله إياهما وأشياء أخرى تضر بملكه ، فحنق ملك الروم وغضب وأرسل قائده (أورل) بجيش ليحرق تدمرَ ويخربها ، ويزيل هذه العقبة الكأداء من طريق مطامعه فى الشرق . فانتهز الفرصة سابورُ فزحف بجيشه الى حاضرة البادية يريد الانتقام ، وكان فى حمص ابن أخٍ لاذينة يلقب بالمعنّى ، وكان يحسد عمه ، ويريد سريرَه ، فلما رأى تألب الأمّتينِ عليه قال حان حينُه . اقتله وألبس تاجه ، وأرِث عرشه .

فأما سابور فهزمته زينب بشجاعتها وبسالتها . وأما الروم فلم يبدأوا الحرب بعد . وأما المعني فاستأذن أذينة ، ودخل عليه بوفد من أتباعه وأنصاره ، فلما اشتد الهجير ، وهدأ القصر ، اغتاله وأعلن نفسه ملكاً على تدمر .

هاجت زينب هياجاً شديداً ، وهتفت بقوادها المخلصين إلى الانتقام ، وأهابت بشعبها إلى الثورة ، وسارت بالجيوش إلى حمص ، ثم حاربت المعني حروباً كثيرة ، وصاولته بنفسها ، وأخيراً أسرته ، وحكمت عليه وعلى من ساعده ولاذ به بالصلب والفصد ، وقالت هذا أقل ما يعاقب به خائن الوطن ، وهكذا استأثرت بسرير تدمر وحدها ، وما أجدر زينب بسرير تدمر ، وما أليق زينب لأعظم من مثله .

* * *

كانت مىّ جميلة رائعة الجمال ، حسناء بارعة الحسن ، وكانت مىّ وفية كريمة شجاعة صبوراً ، وكيف لا تكون كذلك وهى الابنة البكر لزينب ملكة العرب ؟

وكان سولقا رئيس الوفد أميراً جميلاً فتاناً كريماً ، اعتلقته مىّ اعتلاقاً شديداً ، وشغفت به كثيراً ، ولم يكن ما يضمر لها من الحب بأقل مما تضمر له ، ولطالما اجتمعا وتشاكيا الهوى والجوى . إلا أن سولقا فارقها إلى روما ليفى عهد الرسالة ، ومىّ تعذبت لفراقه كثيراً ؛ وحنت اليه حنيناً ، وبكت حتى كادت تتلف . وعلمت أمها بأمرها فعذرتها فى نفسها ، لأنها تعرف الحب ودلائله وأفعاله ، وجنونه وفنونه . إلا أن الذى آلمها أن الروم أعداؤها وسيحاربونها ، وما سولقا إلا رجل من رجالهم ، بل قائد من قوادهم ، فاذا خان وطنه فى سبيل حبه استصغرته ولم ترض أن تصهر إليه ، وإن لم يخن فابنتها مائتة غراماً مافى ذلك شك .

ولقد أقبلت عليها ذات يوم فقالت لها : أى مىّ ! أى ابنتى العزيزة ! لقد وكلت إليك ملك تدمر إلى حين ، لما أعهد من حزمك ودرايتك ، وأما أنا فذاهبة لأحارب الروم وأموت ، أو أملك مابين المشرق والمغرب . فتوكلت مىّ راضية مسرورة . إلا أنها بكت لفراق أمها كثيراً ، وتجلدت لفراق سولقا وتصبرت فما ازدادت إلا حزناً ولوعة .

انقضى شهر ، ثم أتى البشير يعلن انتصار مليكته على الروم ، وأنها أسرت كثيراً من قادة الجيش وضبّاطه ، فأمرت مىّ بسوق الأسرى الى تدمر ، وفى تدمُر أطلت عليهم من الطاق ، فرأت بينهم الأمير سولقا ، ففرحت كثيراً واندفعت اليهم ، وحيتهم ، ودعتهم الى قصرها ، وأكرمتهم كثيراً ، لأن سولقا بينهم ، لا لأنهم قادة ، ولا لأنهم من الروم . وهؤلاء أعجبوا بها وبحنكتها وأخلاقها كثيراً ، وأول من أعجب بها سولقا . وبعد حينٍ أقبلت زينب فارسةَ كمياً ، فزغردت النساء ، وهزجت الأطفال ، وغردت طيور الأمانى . وما انتهت الى قصرها حتى سرّحت الأسرى ، فأعظم الناس كرمَ خلقها ، وهتف العرب والروم وكثير من الفُرس : مرحى زينب الزباء ! مرحى ملكة العرب !

* * *

لم تقنع زينب باستقلالها التام ، بل أرسلت جيشها فغزا ساحل البحر الأبيض الأسيوى كله ، وأعدت جيشاً آخر لغزو النيل ، وفتح مصر ، فجعلت تدمر مُلكية عظيمة يخشى بأسَها القياصرةُ والأكاسرةُ . وملك الفرس الجديد « بهزاد » عقد معها معاهدة ليجعل منها ملاذاً وحمىً ، وخطب ميا من زينب ،

فأقبلت هذه على ابنتها ، وقالت بشراكِ يخطبك بهزاد ملك الفرس ، فاعترفت لها مىّ بحبها سولقا وغرامها به . ولكن زينب تريد أن تزوجها ببهزاد لتأمن شره ، فقد يكون له شر . فدعت سولقا اليها وقالت . أهكذا أيها الأمير تسىء الى من أحسن اليك ؟ قال ما كان لى ذلك أيتها المليكة المعظمة ! قالت نمىَ الى أنك جاسوس لقائدك « أورل » . قال اسمحى لى أيتها المليكة أن أقول لك ، إن مثلى أرفع من أن يكون جاسوساً . انى لا أخفى أنى صديق «أورل» ، وصديق مَلِكى ، وصديق الروم كلهم ، كما أنى أعترف أنى صديق مخلص اليك ، والى ابنتك . فوجمت زينب وقالت أيها الأمير ! لقد وجدتك قائداً شجاعاً ، ووطنياً مخلصاً ، وصديقاً لى أميناً . وسأجعلك القائد الثانى للجيش الذى سأسيّره الى مصر ، فحاربْ وَعُدْ الى ظافراً منتصراً . فقال سأكون إياه ، وكان إياه .

إلا أن ميّاً خافت أن يُقتل فى هذه الحرب . وعلمت أن أمها لم ترسله إلا لتنجو منه .

وبعد شهور أقبل فارسٌ يقول . إن الجيش العربى قد انتصر ، وعاد الى المعسكر غانماً ، غير أن أمراً أحزن الجيش كله ، هو أن الأمير سولقا الذى ناضل كثيراً ، وكان سبب النصر والغنم الأكبر ، اختفى بغتة .

ما وصل الخبر الى مىّ حتى صاحت قائلة : آه إنها حيلة مدبرة ! إن سولقا قد قُتِلَ . ثم انزوت فى حجرتها ، وأنشأت تبكى وتنتحب . ولبثت على حالها أياماً ، لا تأكل ولا تتكلم ، حتى وهنت ووقعت فى سرير المرض . فعالجها الطبيب فشفيت ، إلا أن وجهها الناضر الزاهى أضحى شاحباً حائلاً ، لا رونق فيه ولا حياة .

أقبل رسولٌ بعد ذلك يقول إن الأمير سولقا حىٌّ ، وهو يحارب المصريين بعيداً عن المعسكر . فطار لب مىّ فرحاً ، وكادت تهوى على يدىِ الرسول تلثمهما شكراً ، لكنها خلعت عليه خلعة ، ووصلته بالمال والحلى .

عاد القائد العربى «زبدا» بعد أيام يرافقه الأمير سولقا فاستأذنا على زينب ، ومَثَلا بين يديها فقال « زبدا » أيتها الملكة المعظمة ، إن الأمير سولقا بطل يجب أن يُفتخر بمثله ، فهو هو الذى هزم المصريين ، وجعل العلم العربى يخفق على ربوع النيل .

***

ما زال الروم يسألون زينب أن تعترف بسلطانهم عليها ، وأن تدفع لهم جزية الانتداب ، ومازالت زينب على شمها وإبائها ، لاتعترف لهم بشىء . وأرسل اليها أورل ذات مرة يقول ، تعترفين بسلطاننا عليك ، وتدفعين الجزية ، أوأحاربك وأخلعك ، وأصلبك ، وأسبى ابنتك ، وأتوّجُ على سريرك زيدَ بنَ المعنّى . فثارت زينب ثورتها ، وغضبت غضبتها ، وجمعت المجلس . وقالت الى الحرب أيها الأبطال ، الى الانتقام أيها الرجال ! إن تدمر العربية لا تستكين أبداً لتطاول الروم أو البربر . . .

وهكذا اضطرمت الحرب ، ورحل الروم المقيمون فى تدمر الى وطنهم ، بينهم الأمير سولقا . ولاقت زينب جيش الروم ورأت أن زيد بن المعنى تحت لوائهم ، فقالت الويل له من عاقبة كعاقبة أبيه ، وحاربت وناضلت كثيراً ، وشجعت القادة ، وتقدمتهم الى الموت .

غلب الرومُ ، وانهزم جمعهم ، فتبعتهم زينب تريد التنكيل بهم والقضاء عليهم ، فما أحست إلا وفرسان جيشها فى مستنقعات (الصُوَيْق) يغالبون الموت والموت يغالبهم ، وما أحست إلا والروم قد ضوّق المشاة من جيشها ، واعمل فيهم السيوف ، فجزعت كثيراً ، وخطبت فى سائر جنودها الخطب الحماسية ، فما أفادت ، وما زالت عددها تنفد ، وعددها يقل حتى أوشكت على الهلاك فاستنجدت ملك الفرس قال مىّ ابنتك وأعنيك . فما رأت بداً من التراجع فتراجعت ودخلت تدمرَ محزونة مكتئبة ، وأغلقت الأسوار .

***

بينما كانت زينب تحارب الروم جوار (انطاكية) كانت مىّ ابنتها ترسل اليها العدد ، وتدير أمر المملكة ، وأقبل عليها ذات يوم رسول وقال لقد وجدنا الأمير سولقا يا سيدتى قتيلاً فى سهول حماه . فقالت فى نفسها اذن اهلك معه . وأمرت خادماً لها أن يأتيها بثعبان تتعلم امساكه . ففعل . فخلت بالثعبان وقربت الناب القاتل من الثدى الزاهى وهتفت قائلة : نفسى فداء الأمير سولقا ، وما كاد الناب يغرز فى الثدى حتى هتفت وقالت : لا لا .

نفسى فداء الوطن . ورمت الثعبان من النافذة . وإنها لتفعل إذا رسول بالباب يقول سيدتى هذه خوذة الأمير سولقا يرسلها اليك وهو جريح نعالجه وسيشفى عن قريب ، فقالت : وافرحتاه ! ووصلت الرسول بما يستحقه .

* * *

حاصر أورِل بجيشه تدمر ، وطال الحصار فمُلّ ، ونفدت مؤن المدينة ، وتضاغى الناس جوعا ، فجمعت زينب المجلس الحربى ، فلقيها القادة باكين ، فقالت لم البكاء أيها الأبطال ؟ إما الموت ، وإما الحياة !

وصعدت ابنتها مىّ المنبرَ وقالت إن حفيدة السميْدعِ ميّاً لتضحى بنفسها فداء الوطن .

أخرج بكم أيها الأبطال ، من السرداب النفى الذى يصل تدمر بنهر الفرات . ثم أسير الى ملك الفرس وأعلن له قبول خطبته إياى ، ثم نرجع بجيش وعدةٍ من عنده ، فنكرّ على الروم ، ونمزقهم شر ممزق !

فأكبرت زينب إخلاص ابنتها ، وتفاديها وتضحية حبها فى سبيل الواجب ، وأكبر القوادُ اخلاص أميرتهم وشجاعتها

فى تلك الساعة قال زيد بن المعنى لأورِل قائدِ الروم : إن بين الفرات يا سيدى وبين المدينة سرداباً خفياً ، ترسل منه زينب رسولها إلى بهزاد ، ليمدها بالرجال والزاد ، قال اذن الليلة تمسكون الرسول ، وتفتحون الأبواب ، وتدخلون المدينة ، وتدكون القصر دكاً دكاً وتثلون العرش ثلاً ثلاً !

وما غشى الليل واختلط ، حتى كانت مىّ متقلدة حمائل سيفها تتقدم القواد فى السرداب ، وتشجعهم . وما أطلت حتى كان زيد يطوقها بجنده ، فأهابت به قائلة الويل لك أيها الخائن ، وأقامت تحارب وتناضل ما تقدر أن تفعل ، وودّت لو تُقتل ولا تؤسر ، إلا أن أورل أقبل بجيشه فأسرها ، وفتح المدينة ، وأسر زينب ، ولكن لم يثل العرش ثلا ، وإنما توّج على سرير تدمر زيداً الخائن .

سيقت زينب وابنتها والقواد الى منزل الذل والهوان ، وحكم أورل على زينب بالصلب ، وفى الساعة التى كادوا ينفذون بها الحكم ، كان قائد جميل رومانى يدفع الجموع بمنكبيه ، ويهب بالجلاّد قائلاً : رويدك أيها العِلج . ويتقدم الى أورل ، ويركع عند قدميه ، ويقول : أنا صديقك سولقا أُناشدك الصداقةَ التى بيننا أن تعفو عن زينب ! إنها بطلة يا سيدى ! إنها لم تحاربك إلا دفاعاً عن حريتها واستقلالها وكرامتها ، فلا تلطخ جبين الدولة الرومانية الناصع بقتل البطلات اللائى يضحين أنفسهن فى سبيل الحرية والكرامة والاستقلال ! ! فصرخت زينب قائلة : لا ، لا ، الموت أعذب لى من الحياة بعد الآن ! إن العربية لا تعرف الحياة إلا بالعز ، ولن تعرفها إلا به أبداً ! !

عفا أورل عن زينب وابنتها وأمر بنقلهما معظّمتين الى قصره . وتقدم الأمير سولقا يوماً من مىّ يخطبها فقالت : أنا لا أخفى عليك أيها الأمير أنى أحبك كثيراً ، ولكن لا أقدر أن ألبى طلبك إلا حين أبعث ؛ وأنا اليوم ميتة ! إن العربيات اللائى دوخن الفرس والروم ، وخفقت رايات نصرهن فى لبنان وربوع النيل ، لا يرضين التزوج بالروم ، ولا يعرفن الحياة والحب إلا مع العز والكرامة والحرية[1] . . .

حماه

مرهى الجم الطرابلسى

---

(١) لم يعرف التاريخ قط امرأة تشبه زينب بعفتها ، وفضلها ، وكرمها ، وشجاعتها ، وحزمها ، وإدارتها ، وصدقها ، ووفائها . ويمكن ن نقول إن زينب المثل الأعلى المرأة الكاملة — بالنسبة للعصر الذى وجدت فيه — بل لأعظم من الكاملة . وكمثل الشعار الذى اتخذته زينب لها يجب أن يتخذ سائر نساء العرب شعارهن ! إن زينب فريدة عصرها بل فريدة عصور غيرها . نعم إن هنالك الفتاة الفرنسية جان دارك ، لكنها لايمكن أن تقاس بزينب على حال ، لأنها لم تبلغ ما بلغت . والذى يؤسف له أن الفرنسيين يقيمون لجاندارك عيداً كل عام . ونحن العرب إذا ذكرنا زينبنا يوماً فانما نذكر أسطورة بالية ، وخرافة قديمة ! ؟

وظائف خالية

(شركة مصر للاعلانات وتوزيع الصحف)

فى حاجة الى شبان متعلمين بالقطر المصرى والسودان

ترسل الطلبات برسم مدير الشركة (محمود عزت المفتى)

بميدان عابدين رقم ٢٦ مصر

يرسل مع كل طلب طوابع بوسته بمبلغ قرش صاغ للرد